﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[(١)] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِىَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِىَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِىَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل : ﴿حَسْبِىَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ، و ﴿لاَ إِلَهَ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[(٢)] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ ... فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾، فيهما للنفس عزم ومضاء، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

---

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة، وقسم ثان يقول: إن هناك الله الذى يوحده المسلمون؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله، وأثبتنا أن لا شريك له، وأثبتنا ألا إله غيره، وسبحانه يقول:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب. واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدى رسولك، الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعِيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود.

وترى - مثلاً - الناس وهى تحتاج إلى المياه؛ لأنها ضرورة للحياة؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر؛ لأن المياه التى تأتى من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه، ولماذا؟ لأن المخزون من ماء المطر الذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء؛ لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفَّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا؛ لأن ربنا بيَّن لنا: ارفعوا [1] أيديكم لربكم. إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد.

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول: أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول: ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢)﴾ [النمل]

والمضطر: هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائى [1]. ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التى خلقها الله ، أولاً ، ثم ادْعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتى موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك ، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه ، فتجده يمل ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده ، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له ، ولكن علم علام الغيوب أنه شر له ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ ، قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث .

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك . فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا : «وعلى فلان وعلى فلان». لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه.

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك، وأصبح هذا الكون مسخراً لك،وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون.

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك.

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبّبات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أى ظاهرة كثير.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم،هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك،وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء، وكل ما في الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف [1] ، فحين تبنى دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمبانى تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمى الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها: استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً فى ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذى يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ فى تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن: فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ... (٧) ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل فى حيز قدرته ، وفى حيز ﴿كن﴾، كما يستقر الأمر

(١) العرش: المُلْك ، واستوى الملك على عرشه : أى : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش).

للملك المحَسّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]

أى : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة «الْعَرْشِ» وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ:

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [2] ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

أى : بمقاييس البشر.

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت .


سُورَةُ يُونُس